فساد الذائقة

قال أبو عثمان الجاحظ[١]: "والإنسانُ بالتعلُّمِ والتكلُّفِ وبطُولِ الاختلاف إلى العلماء ومدارسةِ كتبِ الحكماء يَجودُ لفظُه ويحسُن أدَبُه، وهو لا يحتاجُ في الجهل إلى أكثرَ مِن ترك التَعلُّم، وفي فسادِ البيان إلى أكثرَ مِن ترك التخيُّر"[٢].

•••

الغريب:

التكلُّف: التصنُّع والممارسة. **التخيُّر**: الانتقاء والاختيار.

•••

البيان:

على كثرة الكتب والرسائل المصنفة في المنهجيات العلمية وتراتيب الطلب وعلى كثرة الوصايا والنصائح والإرشادات الموجهة إلى طالب العلم في أيِّ علمٍ كان فإنه لا يرتاب اثنان أن العلم لا ينال بغير التعلم المتواصل والاستمرار الدؤوب، **وكلما كانت جذور التعلم أعمق لدى طالب العلم كانت شجرة علمه أثبت رسوخاً وأعظم فروعاً وأينع ثمارا.**

ويعبر الجاحظ عن هذا المعنى فيقول: (والإنسانُ بالتعلُّمِ والتكلُّفِ وبطُولِ الاختلاف إلى العلماء ومدارسةِ كتبِ الحكماء يَجودُ لفظُه ويحسُن أدَبُه)، وهنا معنىً مليح أشار إليه الجاحظ وهو (التكلف) في ابتداء مزاولة العلم، فإن التكلُّفَ في الابتداء يُفضي إلى التطبُّع في الانتهاء، ولا يصل المرءُ إلى شيءٍ ليس من طبعه وعادته إلا بأن يتكلفه شيئاً فشيئاً حتى يناله.

فمن أراد أن يكون فصيحَ اللسانِ والبنان بليغَ المنطقِ والكتابة فلا بد له أن يعالج البيان الرفيع والأدب العالي ويتحفَّظ منه ما يستطيع ويكرر منه ما يقدر عليه حتى يصل إلى بغيته ويتحقق له

---

(١) هو أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، وغلب عليه لقب (الجاحظ) لجحوظ عينيه وبروزهما حتى صار لقبه أشهر من اسمه، من كبراء أئمة البيان والأدب، وعُرِف بخفة الروح وحلاوة الدعابة، وكان من بحور العلم الواسع والثقافة المتشعبة يضربُ في كل فنٍّ بسهم، وقد شُغِفَ بالكتب جمعاً وقراءة حتى قال فيه بعض معاصريه: **(لم أر قطُّ ولا سمعتُ من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنَّه لم يقع بيده كتاب قَطُّ إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان)**، وعلى حسن بيانه وفصاحة قلمه وسعة اطلاعه فقد كان معتزلياً من رؤوس البدعة والضلالة في زمانه حتى سمي (خطيب المعتزلة)، وكتبه هي مضرب المثل في حسن البيان وجودة التعبير، وقد ترك إرثاً أدبياً ضخماً منه: (البيان والتبين)، و(الحيوان)، و(البخلاء)، ورسائل متفرقةً جُمع بعضها وطُبع باسم (رسائل الجاحظ). ت:٢٥٥هـ.

(٢) البيان والتبين (٨٩/١).

مراده، وفي مثل هذا يقول أبو حامد الغزالي: **(فإن هذه الأحوال قد تُتكلَّف مباديها ثم تتحقق آواخرها،... وكذلك الكاتب يكتب في الابتداء بجهد شديد ثم تتمرن على الكتابة يده فيصير الكَتْبُ له طبعاً فيكتب أوراقاً كثيرةً وهو مستغرقُ القلب بفكرٍ آخر، فجميعُ ما تحتمله النفس والجوارح من الصفات لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنُّع أولاً ثم يصير بالعادة طبعاً)**.

ولا تنال ملكة العلم إلا بأخذه على أهله المتقنين ومزاولة كتبه المتخصصة، ولهذا يقول الجاحظ: **(وبطُولِ الاختلاف إلى العلماء ومدارسةِ كتبِ الحكماء يَجودُ لفظُه ويحسُن أدَبُه)**، فليس الشأن في طول الاختلاف وإنما طول الاختلاف إلى العلماء، وليست الفائدة في مدارسة الكتب وإنما مدارسة كتب الحكماء؛ فإن انتقاء المعلِّم الحاذق والكتاب الجيد يختصر مراحل في طريق الطلب، وحفظ البيتين المليحين أجود من حفظ القصيدة الركيكة، واختيار المتن الجامع المحكَم أفضل من دراسة المتون المضطربة الرديئة.

ثم يقول أبو عثمان: (وهو لا يحتاجُ في الجهل إلى أكثرَ مِن ترك التَعلُّم)، وهذا معنىً رائقٌ مشهور في لفظٍ موجزٍ جامع، فإن الإنسان لا يحتاج لكي يكون جاهلاً إلى أكثر من الانقطاع عن التعلم، فلا يوجد في طريق العلم مرحلةٌ متوسطةٌ بينه وبين الجهل، فإنه إما أن يكون متعلماً سائراً في طريق العلم أو يتوقف فينزلق في هوة الجهل. وهذا عين المعنى الذي كان يردده إمام الكوفة سعيد بن جبير بقوله: **(لا يزال الرجل عالماً ما تعلَّم، فإذا ترك التعلُّم وظن أنه قد استغنى فهو أجهل ما يكون)!**

والإشكال حين يتوقف الإنسان عن الطلب ويظن أنه استغنى واكتفى بما عنده، ويحسب نفسه قد حصَّل من العلم ما يبقيه في مرتبة العلماء ومصاف المتعلمين، فالجهل بالجهل آفة هؤلاء، **كما قال سهل التستري: (ما عُصِيَ الله بمعصيةٍ أعظم من الجهل)!** قيل له: فهل تعرفُ شيئاً أشد من الجهل؟ فقال: **(نعم، الجهل بالجهل؛ لأن الجهل بالجهل يسد باب التعلم بالكلية، فمن ظن بنفسه العلمَ فكيف يتعلم)؟!**

ثم قال الجاحظ: (وفي فسادِ البيان إلى أكثرَ مِن ترك التخيُّر)، أي إن المرء إذا لم يحرص على الانتقاء والانتخاب والاختيار فيما يقرأ ويسمع ويحفظ، كان الفسادُ إلى بيانه أسرع دبيباً منه إلى غيره، فإنَّ المدخَلات التي يتعرض لها الإنسان كثيرة، خاصةً في عصرنا اليوم، فالمرء ما لم تكن لديه آلةٌ فارزةٌ تميز الجيد من الرديء والسمين من الغث اختلت ذائقته وفسدت.

وليست عملية الانتقاء والاختيار سهلةً يسيرة، ولهذا قال العلماء: (**اختيار المرء قطعةٌ من عقله**)، لأن انتقاءه وانتخابه فيه دلالةٌ على المعايير التي قدم بها شيئاً وفضَّله وترك آخر وأخَّره، وهذه المعايير تكشف عن ذائقته الكامنة في نفسه وتبرزها للناس، لكن الانتقاء والاختيار في الجملة خيرٌ من أن يتلقى الإنسان كل شيءٍ من غير تمييز ولا تمحيص؛ لأن الذهن كالطابعة الضوئية التي تخرج منها ما دخل إليها، والتبصُّر بهذا الارتباط الوثيق بين المدخلات والمخرجات هو الذي يضبِطُ صورة المخرج النهائي للنتاج العقلي.

ومما يصعب عملية الانتقاء والاختيار أنها لا تثمر إلا بالاستمرار عليها حتى تكون ديدناً ودأبا؛ لأن الفساد إذا دخل عليها من أي وجهٍ انقلب كل شيء إلى ضده ولم يعد لذلك الانتقاء معنى، وهذا مثل صاحب الثوب الأبيض النظيف الذي لا يزال يحوطه من الدنس والقذر، فإنه إذا لبث ردحاً من نهاره نقيَّ الثوب ثم عرض له الفساد نصف النهار لم يبال أحدٌ بما كان عليه ثوبه وقت طهارته ونقاءه، وصار الناس ينظرون إلى ذلك الفساد الحادث ويحاكمون صاحبه إليه.

وهذا المعنى متصل بكلام الجاحظ، فإن المعاني الفاسدة ألصق بالنفس وآلفُ للسمع من غيرها، فقد يظل الرجل حريصاً على نقاء عقله وسلامة ذهنه مما يخدش تصوراته ويفسد أفكاره ويخل بذائقته دهراً، ثم يتزين له المعنى الفاسد ذات مرةٍ فيهجم على فؤاده من غير سابق إنذارٍ فلا يجد للسلامة الماضية والنقاء السابق أثرا؛ والفساد أبلغ تأثيراً من الصلاح، وفي هذا يقول الجاحظ قبل عبارته المتقدمة بسطورٍ يسيرة: (**وإن المعنى الحقير الفاسد والدني الساقط يعشش في القلب ثم يبيض ثم يفرخ، فإذا ضرب بجرانه ومكن لعروقه، استفحل الفساد وبَزُل، وتمكن الجهل وقَرُح، فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواؤه، لأن اللفظ الهجين الردي والمستكره الغبي أعلقُ باللسان وآلفُ للسمع وأشدُّ التحاماً بالقلب من اللفظ النبيه الشريف والمعنى الرفيع الكريم. ولو جالست الجهال والنوكى والسخفاء والحمقى شهراً فقط لم تنق من أوضار كلامهم وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهراً، لأن الفساد أسرعُ إلى الناس وأشدُّ التحاماً بالطبائع**).